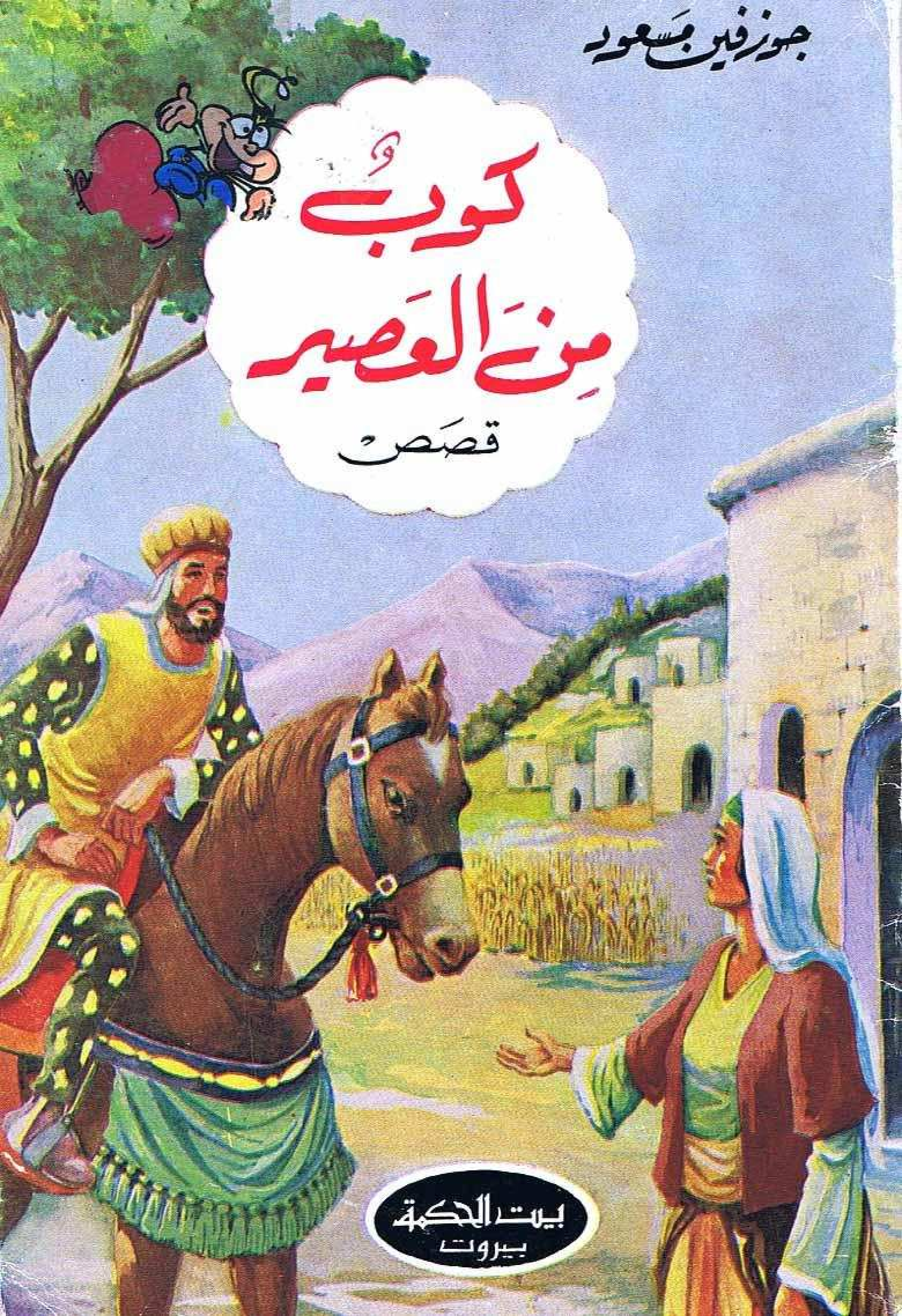

جوزفين مسعود
كوبٌ من العَصير
قصَص
بيت الحكمة
بيروت

جوزفين مسعود

كوب من العصير

قصص

بيت الحكمة
بيروت

الغلاف والرسوم بريشة « رضوان الشهّال »

الطبعة الخامسة ، بيروت – لبنان ، ايلول (سبتمبر) ١٩٩١

كوبٌ مِنَ العَصِير

خرجَ « كِسْرى أنوشروان » ، ملكُ الفُرْس ، إلى الصَّيد يوماً ، يُرافِقُه جماعةٌ من أَتْباعه . وفيما هو يَبْحثُ في الغابة عن طَريدةٍ يَصطادُها ، شاهدَ غزالاً رَشيقاً يَقْفِزُ أمامَه هارباً .

هَمَزَ الملكُ فَرَسَه ، فَعَدا به في آثار الغزال . ولكنَّ الغزالَ كان سريعاً جدّاً ، فطالَتِ المُطاردةُ ، ولم يتمكَّن « كسرى » من اللِّحاق به . وأخيراً توقَّفَ الملك ، وإذا هو قد بَعُدَ عن أتباعِه ، وإذا هم قد غابُوا عن مَرْمى بَصَره . وكانَ التَّعبُ

والعَطَشُ قد أَخَــذا منه كلَّ مَأْخَذ ، فقال في نفسه :

ــ في أطراف الغابة تلوحُ لي قريةٌ . فلأَدْخُلْ بيتاً من بيوتها ، ولأَطْلُبْ فيه بعضَ الماء .

حَثَّ جوادَه حتى وَصَلَ إلى أوَّلِ بيتٍ فيها . طَرَقَ بابَ البيت ، ففتحتْ له صَبِيَّةٌ حَسْناءُ . قال لها « كسرى » :

ــ غَريبٌ تائه ، يا فتاتي ، يَرْغَبُ في شُرْبَةِ مــاء .

قالت له الفتاةُ بلُطفٍ :

ــ أَهْلاً وسَهْلاً ، وعلى الرُّحْب والسَّعَة ، أيُّها السيِّدُ الكريمُ ! تَفَضَّلْ بالدُّخول ، بيتُنا بيتُكَ !

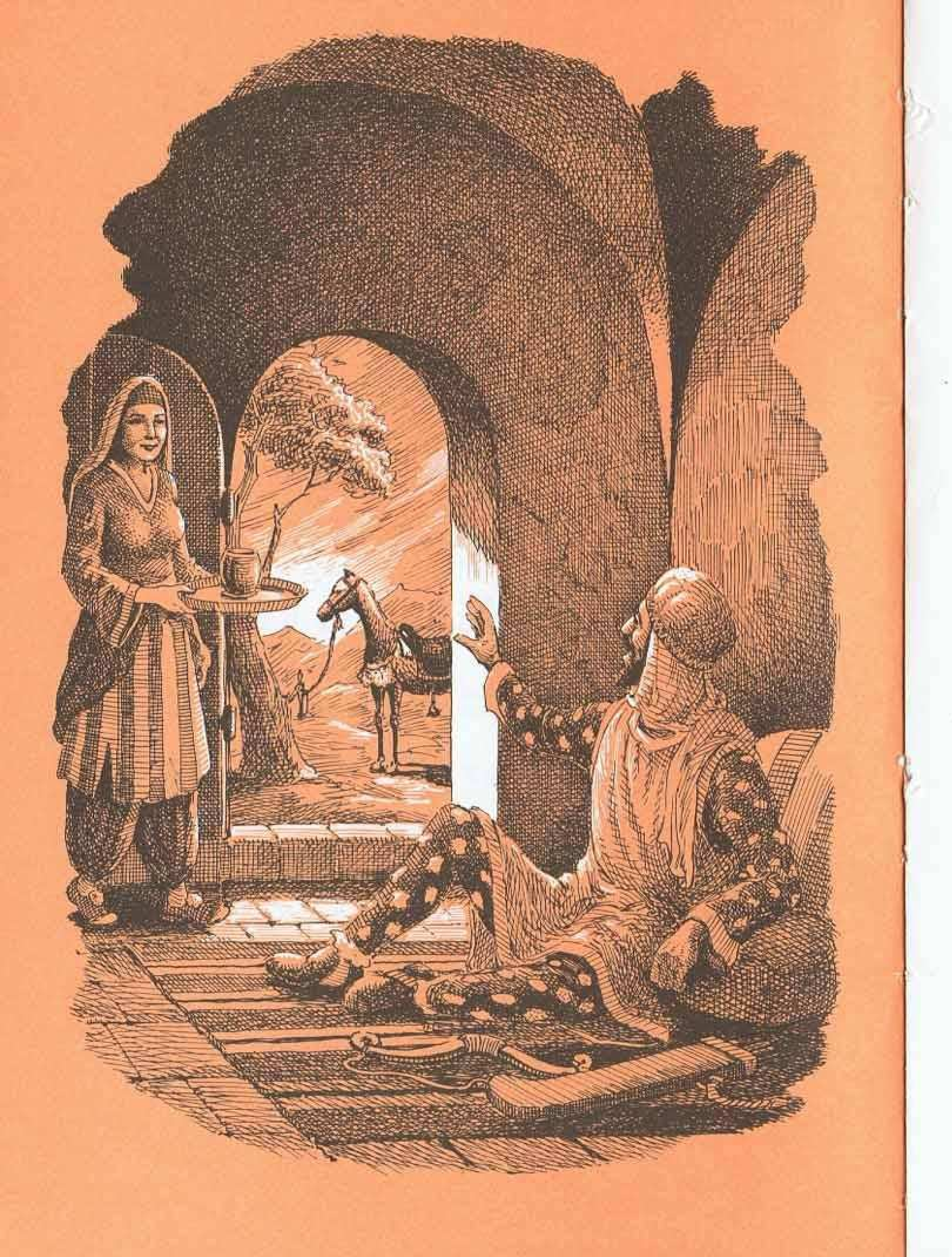
دخل « كسرَى » الدارَ ، فجَلَسَ على حَصير في الزاوية أشارتْ إليه الفتاةُ . وانصرَفتِ الفتاةُ إلى

داخلِ البيتِ تُعِدُّ للضَّيف الغريبِ كُوباً من عصير السُّكَّر ، ثمَّ رشَّت على وَجْه العصيرِ طِيباً يُشْبهُ التُّرابَ ، وحَمَلَتِ الكوبَ إلى الملكِ ، وهي لا تدري مَن يكونُ .

تناوَلَ « كسرى » الكُوبَ من يــد الفتاةِ ، فشاهدَ على وجههِ الطِّيبَ ، فظنَّه تُراباً . تردَّدَ أوَّلَ الأمرِ في شُربه ، ولكنَّ شِدَّةَ عَطَشِه قَضَتْ على تَرَدُّده ، فأخــذ يَرشِفُ العصيرَ ببطءٍ وتمهُّلٍ حتى لا يشربَ معَه الطِّيبَ الذي ظَنَّـــه تراباً . ولمّا انتهى من شربه أعادَ الكوب إلى الفتــاة ، وقال لها :

ــ شرابُكِ ، يا فتاتي، لذيذٌ طَيِّبٌ ، لولا ذلك التُّرابُ الذي على وجهه .

أجابت الصَّبِيَّةُ :



ـ أيُّها الضيفُ الكريم ، هذا ليس بتُرابٍ ، بل هو نوعٌ من الطِّيب وَضَعْتُـه في الشَّراب عَمْداً .

ـ ولكنَّني كنتُ أُفَضِّلُ أن أَشْرَب العصيرَ من غيرِ طيبٍ ، حتى أتمكَّنَ من شُربه دفعةً واحدةً لأُرْوِيَ عَطَشي !

تَضاحكَتِ الفتاةُ وقالت :

ـ سيِّدي ، رأيتُكَ شديدَ العطشِ ، شديدَ التَّعبَ . فخِفْتُ عليكَ أن تشربَ العصيرَ بسرعة ، وهذا مُضِرٌّ بالصحَّة . لذا وضعتُ الطِّيبَ عن قَصدٍ حتى تتمهَّلَ في شربك .

أُعجِبَ الملكُ بذكاءِ الفتاة ، وأَرادَ أن يَستزيدَها من الحديث . سألها :

ـ كم عُوداً من قَصَبِ السُّكَّرِ عَصَرْتِ حتى

ملأتِ هذا الكوبَ ؟

أجابت الفتاةُ مَزْهُوَّةً فخورة :

ــ عوداً واحداً يا سيّدي . إنّ بَلْدَتَنا مشهورةٌ بأصناف القصب الغنيَّةِ .

وعادَ الملك إلى السؤال :

ــ مَوْسِمُ هذه السنةِ ، لا شكَّ ، جيِّدٌ ؟

ــ حَمْداً لله ، مواسمُنا دائماً حسنة .

وبعد ما نال الملكُ قِسْطاً من الراحة شَكَرَ الفتاةَ ، وسلَّمَ عليها ، وانصرف .

★

بعد مَسيرةِ أميالٍ التقى الملكُ أتباعَه ، وكانوا يَبحثون عنه . فأرسلَ أحدَهم إلى القرية يسأل عنها ، وعن قيمة الضَّريبةِ المفروضةِ عليها للخزينة . ولمّا عادَ الرّسولُ أخبرَ الملكَ عن أحوال القريةِ ، وعن

الضريبة المفروضةِ للخزينة . فوجدَ « كسرى » أنّ قيمةَ الضَّريبةِ زهيدةٌ جداً ، لا تُقاسُ بخِصْب القريةِ وغِناها . أفلم تُخبرْه الفتاةُ أنّ عوداً واحداً من القَصَب يملأُ الكوبَ عصيراً ؟

أرسل « كسرى » يَطْلُبُ حاكمَ القريةِ ، وأمَرَهُ بزيادة الضَّريبةِ على السكّان ، لأنّ زراعة قصب السُّكرِ فيها مزدهرةٌ .

★

تابع « كسرى » رِحلةَ الصَّيدِ ، فدامت أُسْبوعاً كاملاً . وفي طريق العودةِ مرَّ بالقرية التي مرَّ بها في السَّابق ، فدقَّ بابَ الفتاةِ ، ففتحَتْ له . قال لها الملكُ :

ــ طابَ يومُكِ يا فتاتي . لقد اشتقْتُ إلى عصيرِكِ اللّذيذ . فهلاّ تكرَّمْتِ عليَّ بقليلٍ منه ؟

ولكنْ ، أرْجوكِ ، اجْعَليهِ من غيرِ طِيبٍ !

رَحَّبَت الفتاةُ بالملك وانصرفتْ إلى إعداد الشَّراب . وجلَسَ الملك على حصيره يفكِّرُ بجَمال الفتاة ، وأدبِها ، وذكائها ، وحُسْنِ ضِيافتِها .

طالَ غِيابُ الفتاة، وضاقَ «كسرى» بالانتظار. فصاح بصوتٍ عالٍ :

ـ أيَّتُها الصَّبيَّةُ ، أينَ العصيرُ ؟

أطلتِ الفتاةُ بسرعةٍ ، وأجابت :

ـ عَفواً ، سيِّدي . لقد عصَرْتُ حتى الآنَ ثلاثةَ أعوادٍ من قصب السُّكَّر، ولم تمتلئِ الكأسُ. وإنّي أعْصِرُ المَزيدَ من الأعْوادِ .

نظرَ الملك إلى الفتاة باسْتِياءٍ وقال :

ـ ولكنَّ الأمرَ لم يكنْ هكذا في المرَّة السَّابقة . لقد قُلْتِ لي آنذاكَ إنَّ عوداً واحداً منَ

القصب يملأُ الكوبَ !

إبتسمتِ الفتاةُ وأجابت :

ـ هذا كان في المرَّة الماضيةِ ، حينَ كان سيِّدُنا الملكُ راضياً على القرية . أمّا وقد تغيَّرَ اليومَ رِضاهُ علينا ، فقد تغيَّرَ معه عَطاءُ القصب !

غَضِبَ الملكُ وصاح :

ـ أوْضِحي أيَّتُها الفتاةُ ! لا أفْهَمُ ما تقولِينَ !

إبتسمت الفتاة ثانيةً ، وأجابت :

ـ سمِعنا يا سيِّدي أنَّ عاطفةَ الملك نحوَنا قد تغيَّرتْ ، فزادَ علينا الضَّرائبَ التي لا نَستطيعُ تَحَمُّلَها . ويومَ تغيَّرتْ عاطفةُ الملكِ زالت عن قريتِنا البَرَكَةُ ، وقَلَّتْ فيها الخَيْراتُ ، فجَفَّتْ بالتالي أعوادُ القصبِ وقَلَّ عصيرُها .

ضحِكَ الملكُ طويلاً ، وفَهِمَ قَصْدَ الفتاة .

عَرَفَ أنَّها غيرُ راضيـــةٍ عن زيادة الضرائب على قريتها .

في تلك اللَّحْظة دخلَ أتْباعُ الملك مَنْزِلَ الفتاة . كانوا يَبْحَثُونَ عنه ، وظَنُّوا أنَّ سُوءاً قد نَزَلَ به ، حتى عَلِموا بوجوده في ذاك المَنْزِلِ .

تقدَّمُوا من « كسرى » وسجدوا له . عند ذلك نظرَ الملكُ إلى الفتاةِ ، فلم يرَ على وَجْهها أيَّ أثَرٍ من آثار التَّعَجُّب . سألها :

ــ أَراكِ لا تَسْتَغْرِبـين وجودَ هؤلاءِ الرجال بين يَدَيَّ ! أَوَتَعْلمينَ مَنْ أنا ؟

أَجابت الفتاة ، والابتسامةُ لا تُفارقُ ثَغْرَها ووجهَها :

ــ نعم يا مولاي ! عَرَفْتُكَ اليومَ قبلَ وُصولِ أَتْباعِك !

ــ وكيف كانَ ذلك ؟

ــ لمّا زُرْتَنا في المرَّة السابقـــة لم أعْرِفْكَ . ولكنْ عَرَفْتُ أنَّكَ الملكُ حينَ زاد الحاكمُ علينا الضَّرائبَ ، قائلاً إنَّ قريتَنا غنيَّـةٌ ، والدليلُ على غِناها أنَّ عُوداً واحداً من قصب السُّكَّر يَملأُ كُوباً. فأدركْتُ ، للحال ، أنَّ الذي زارَنا ، وسألني عن عصير القصبِ ، هو الذي أمرَ الحاكمَ بزيادة الضَّرائبِ . ومن يأمرُ الحـــاكمَ سوى مولانا الملكِ ؟ ولمّا شرَّفْتَنا اليومَ بزيارتك عرفتُكَ ، ولذلك تأخَّرْتُ في صنع العصيرِ عَمْداً . إنَّ قَصَبَنا ما يزالُ كما كان ، وإنَّ عُوداً واحداً منه ما يزال يملأُ كوباً. ولكنَّني أَحبَبْتُ بتصرُّفي أن أَلفِتَ انتباهَ الملكِ إلى أَنَّنا لا نَمْلِكُ إلاّ هذا القَصَبَ رِزْقاً ، وأَنَّنا لَسْنا أَغنِياءَ كما يَظُنُّ ، بل نحن قومٌ فقراءُ ، ولكنْ كِرامٌ .

صَفَّقَ الملك بيدَيه إعجاباً بتفكير الفتاةِ وحِيلتِها. وما زاده ذكاؤها وجرأتُها إلاّ تعلُّقاً بها.

في تلك الأثناءِ دَخلَ والدُ الفتاةِ، وهو فلاحٌ فقيرٌ كادحٌ. ولمّا شاهدَ الجنودَ والأتباعَ في بيته خافَ. ثم وَقَعَ نَظَرُه على الملك جالساً على الحصير، فعرَفَه، وزادت مخاوفُه.

وأدركَ الملكُ ما يَدورُ في رأس الرجل، فخاطَبه مُطمئناً:

ــ لا تَخَفْ يا صديقي. أَصْغِ إليَّ. لقد زُرْتُك مرَّتينِ، فوجدت ابنتَك جميلةً، ذكيَّةً، مِضيافةً. لذلك أردتُ أن أَتّخِذَها زوجاً لي. فما رأيُكَ؟

لم يُجبِ الرجل بكلمةٍ من شِدَّةِ المفاجأة. أمّا الملكُ فقد نظَرَ إلى الفتاة، فرآها تَبْتَسِمُ ابتسامَتَها

الساحرةَ، وكأنَّها تقولُ له بذكائها المعروفِ:

« إنَّ طَلَبَكَ لم يفاجِئْني! فقد زرتَني في أوّل رحلتك، وزرتني في آخرها. ألا تَعلَمُ أنَّ رِجلَ المُحِبِّ تقودُه، من غيرِ أن يَشْعُرَ، إلى حيثُ يُحبُّ؟ »

★

وهكذا تزوَّج « كسرى أنو شروان »، ملكُ الفُرسِ العظيمُ، بالفتاة الفقيرة، وأعفى أهلَ قريتِها من دَفْعِ الضَّرائبِ، إكراماً لها.

أمّا الشَّرابُ الذي قُدِّم للمَدْعُوِّين أيّامَ الاحتفالِ بالزَّواج فلم يكنْ إلاّ عصيرَ السُّكَّر!

الرّغيفان

كان لأحد الملوك الأشرار وزيرٌ صالحٌ عادل، يُحبُّ الفقراءَ ويَتصدَّقُ على المعُوزين. أحبَّه الناسُ لعَدله وإحسانِه، فكانوا يلتَفّون حولَه كلّما شاهدُوه، ويهتِفون بحياته.

غارَ الملِكُ من وَزيرِه الفاضِلِ، فقرَّرَ أن يتخلَّصَ منه. خلَعَـــه من مَنْصِبِه ونفاه إلى خارج البلاد. ثم أصدرَ قانوناً يُحَرِّمُ فيه على رَعِيَّتِه عَمَلَ الخيرِ والإحسانِ، ومَنْ خالَفَ هذا القانونَ قُطِعَتْ يداه.

خاف الناسُ خوفاً شديداً ، وامتنعوا عن صُنعِ الإحسانِ وعَمَلِ الخير .

✶

وكان في تلك المدينةِ صَبيَّةٌ جميلةٌ ، عُرِفَتْ بكَرَمِ أخلاقِها وطِيبِ قَلْبِها ، فأَحبَّها الناسُ واحترَموها .

في مساءِ أحدِ الأيّامِ سمعتِ الفتاةُ طرقاً خفيفاً على بابِها ، تلاهُ أنينٌ مُوجِعٌ . ركَضتِ الفتاةُ إلى الباب تَفْتَحُه ، وإذا بها أمامَ شيخٍ طاعِنٍ في السِّنّ ، يئِنُّ أنيناً خافِتاً ، ويكادُ يَسْقُطُ أرضاً. وما إنْ شاهدَ الفتاةَ حتى قال لها بصوتٍ ضعيف :

— سيِّدتي ! رُحْماكِ ! أكادُ أموتُ من الجُوعِ ! تصدَّقي عليَّ بشيءٍ من الطعام !

تألَّمتِ الفتاةُ لِمَنْظَرِ الرَّجلِ الفقير . ولكنْ ،

ما عساها تَفْعَلُ ؟ إنَّ قانونَ الملكِ صارمٌ ، ظالمٌ ، قاسٍ ، وكلُّ مَن عَمِلَ خيراً قُطِعَتْ يداه ! قالت للفقير بقلبٍ حزين :

— يا صديقي ! كيف أُحْسِنُ إليكَ ، والملكُ يَقْطَعُ يدَي كلِّ مَن خالَفَ أمْرَه؟

أجابَ الفقيرُ ، وكلامُه يكادُ يكونُ لهاثاً :

— سيِّدتي ، إنّ قانونَ الملكِ هو سبب جوعي ومرضي . طرَقْتُ أبوابَ المدينةِ كُلَّها ، فلم يفتحْ لي أحدٌ بابَه . حتى وصلتُ إليكِ ، فوجَدْتُ فيكِ العَطْفَ والحنان . تصدَّقي عليَّ ، أرجوكِ ، ولا تتركيني أموتُ جوعاً !

لمّا سمعتِ الفتاةُ هذه الكلماتِ تَناسَتْ قانونَ الملك. أسرعتْ إلى داخلِ البيتِ ، ثم رَجَعَتْ ومعها رَغيفانِ من الخُبْزِ ، فأمسك الرجلُ بهما وراح

يَلْتَهِمُها . نظرَ إلى الفتاة طويلاً ، وقال :

ــ أَطلُبُ من الله أن يَرُدَّ عليك هـذين الرَّغيفينِ خيراً وَبَرَكةً !

وغادرَ البابَ واختفى عن ناظِرَيْها .

★

وكان جواسيسُ الملكِ يُراقبون أعمالَ الناس ليلاً ونهاراً . فعرَفوا بإحسان الفتاة ، وأخبرُوا الملكَ بأمرها . في اليوم التالي ذَهبَ الجلاّدُ إلى بيت الفتاةِ وصاح بها :

ــ أيّتُها الفتاةُ ! لقد حكمَ مولاي الملكُ بقطعِ يديكِ لأنّكِ خالفتِ قانونَ البلاد !

إرْتعدَتِ الفتاة خوفاً عند رؤيتِها سيفَ الجلاّدِ ، وقالت متوسِّلةً :

ــ ما فعلتُ إلاّ الخيرَ ، فكيفَ أُعاقَبُ عليه ؟

إرْحَمْني يا سيِّدي !

رقَّ قلبُ الجلاّدِ على الفتاةِ ، وأجابها بصوتٍ خافت :

ــ يا بُنَيَّتي ، أنا مُشفِقٌ عليكِ ! ولكنَّني مُضْطَرٌّ إلى تنْفيذِ أوامِرِ المَلِكِ . فإذا لم أَقْطَعْ يدَيكِ قَطَعَ هو رأسي .

كَفَّتِ الفتاةُ عنِ البُكاءِ . فهِمتْ أنَّه لا بُدَّ من تَنفيذ الحُكْمِ . والتفَّ حوْلَها الناسُ وأخذوا يبكُون .

عصبَ الجلاّدُ عَينَي الفتاةِ كي لا تُشاهِدَ المَنْظرُ الرَّهيبَ ، ونَفَّذَ فيها حُكْمَ المَلِكِ ، فأُغْمِيَ عليها من الخَوْفِ والألم.

وبعد أيّامٍ التأمَتْ جروحُ اليدَينِ بسُرعةٍ .

★



... ومَضتِ الأيّامُ . والفتـاةُ المِسْكِينَة تَعيشُ وحيدةً ، بعيدةً عنِ الناس .

وأرادَ الملكُ الظّـالمُ الزّواجَ ، فطَلَبَ من أُمِّه أن تَبْحَثَ له عن أَجْمَـلِ فتاةٍ في المَمْلَكة ليتزَوَّجَها .

قامت المِلكةُ الأُمُّ بزيارة بيوتِ المدينـةِ والقُرى ، فلم تجدْ أَجْمَلَ من الفتاةِ التي قُطِعَتْ يداها . كانت رائعةَ الجمالِ ، رفيعةَ الصِّفاتِ ، طَيِّبةَ القلب . فعادت الملكةُ إلى ابنها ، وأَخْبرَتْه بما وَجدتْ .

لم يَقْبَلِ الملكُ أن يتزوَّجَ بفتاة مقطوعةِ اليدَين . وطَلَبَ من أُمِّـه أن يرى بناتِ المَمْلَكَـةِ الجميلاتِ . ولكِنَّهُ لم يُعجَبْ بأيٍّ واحدةٍ منهُنَّ . وفي يوم من الأيّام دَخلَ على أُمِّه وقال لها :

ــ أُمّاهُ ! إنّي أَرْغَبُ في رؤيَةِ الفتاةِ ذاتِ اليدَينِ المقطوعتَينِ .

وللحال أرسلتِ الملكـــةُ الأمُّ تَطْلُبُ الفتاةَ ، فأُحْضِرَتْ إلى القَصْر . ومـا إنْ وَقَعَ نَظَرُ الملـكِ عليها حتى أَحَبَّها ، وقَرَّرَ أن تكونَ هذه الفتاةُ له زوجاً .

وهكذا كان .

*

وبعد سنةٍ وَضَعتِ الملكـــةُ الشابَّةُ طفلاً ، فاكتملتْ به سعادتُها .

ولكنَّ هذه السعادةَ لم تَدُمْ طويلاً . فقد أتى إلى الملِكِ جاسوسٌ خبيثٌ من رجـــاله ، وأخبره بقصَّةِ الملِكةِ ، وأنَّها هي التي خالَفَتْ أوامِرَه بعَدَمِ الإحسانِ إلى الفُقَراءِ ، وكيف أنَّه أَمَرَ بقَطْـــعِ يدَيها ...

لمّا سمع الملكُ هـــذا الكلامَ غضِبَ

غضباً شديداً !.. جُنَّ جُنونُه على زوجته ! ولم يُطِقْ أن تبقى معه يوماً واحداً ، فأمَرَ أَحدَ حُرّاسِه أن يَخْرُجَ بالملكة وابنِها إلى إحدى الغاباتِ البعيدةِ ، ويَتْرُكهما فيها طعاماً للوحوشِ المُفْتَرِسة .

ولمّا أصبحت الملكةُ وحيدةً مع ابنِها الصَّغيرِ المسكينِ ، في تلك الغابةِ المُوحِشَةِ ، أَخذتْ تبكي وتَنوحُ ، وهي لا تدري لغَضَبِ زوجِها المُفاجِىءِ سَبَباً .

وعَطِشَ الطِّفلُ عَطَشاً شديداً . ولكنْ ، من أَينَ له الماءُ ؟! وفيما الأمُّ تتجوَّلُ في الغابَةِ وهي لا تَعرِفُ كيف تَتَّجِهُ ، وإلى أَينَ تَسيرُ ، سمعتْ ، من بعيدٍ ، خريرَ ماءٍ يَجري . أَسْرَعَت بابنِها إلى مَصْدَرِ الصوت ، فإذا بها ترى نَهْراً يتدفَّقُ فوقَ الصُّخورِ ، بين الأَشْجارِ العاليةِ . رَكَضَتْ وهي تَضُمُّ ابنَها بقُوَّةٍ ،

حتى وَصلَتْ إلى ضفةِ النَّهر . وهنــاكَ رَكَعَتْ ، وانحنَتْ فوقَ الماء لتَسقيَ ابنَهــا وتَشربَ . ولكنَّ الولدَ سَقطَ من بين ذِراعَيها ، ووَقَــعَ في الماء !

صاحت الأمُّ بلوعة :

ــ رَبَّاهُ ! طفلي ! ماذا أفعلُ ؟

في تلك اللَّحظةِ بالذات شاهدتْ رَجُلَين يقفانِ أمامَها ويَنظرانِ إليها . قال لها أَحدُهما :

ــ لا تخافي يا سيِّدتي ، سأُنقذُ طِفْلَكِ !

ورمى بنفسه في النهــر ، وأخرجَ الطِّفْلَ وسلَّمَه إلى أُمِّه . فضَمَّتْه إلى صدرها بذراعَيها وهي تبكي من شِدَّة فرَحِها . وفجأةً شَعرتْ بيدَيها ! نظَرَتْ فرأتْ يدَيها ، ويا لَشِدَّةِ عَجَبِها ، وقدعادتا كاملتَينِ سليمتَينِ ! حرَّكَتْها ، حرّكت أصابعَها ،

تَلَمَّسَتْ بهما شَعرَ ابنِهــا ، وهي لا تُصدِّقُ ما جرى !

إلهي ! ما أعْظَمَ عجائِبَكَ ! حُبُّكَ كبيرٌ ، ورحمتُكَ واسعة !

★

حملتِ الملكة طفلَها وسارت برِفقة الرجلَين . وما إن وَصَلُوا إلى أبواب إحدى القرى حتى شاهَدُوا حَشْداً كبيراً من الجُنود ، يتقــدَّمُهم الملكُ نفسُه . خافتِ الملكة على ابنها وعلى نفسها ، لأنَّها ظنَّتْ أنَّه سَيقضي عليها لا محالَة .

ولكنَّ الملكَ تقدَّم منها والدموعُ في عَينَيه ، وضمَّها إلى صدره ، وضمَّ طفلَه ، وهو يقول :

ــ عَفوَكِ يا زوجيَ الطاهرةَ ! عَفوَكَ يا ابني المَظْلومَ ! عفوَكما ، فقد قَسَوْتُ عليكما بقلبي الأسودِ وحُكمي المستَبِدِّ ! ولقــد خَرَجتُ في جنودي

أبحثُ عنكما، حزيناً، نادماً، حتى التقيتُكما اليومَ! فما أَسْعَدَني بهذا اللِّقاءِ!

أمسكتِ الملكة بيدَي زوجِها، وراحت تَشُدُّ عليهما، فصَعِق، وصاح:

ـ يداكِ! لقد عادت إليك يداكِ! ما هذا الحُلمُ الذي أنا فيه؟

تقدّم الرجلانِ الغريبانِ من الملكِ وقالا له:

ـ إنّها الحقيقةُ أيُّها الملكُ! فهنيئاً لك زوجُكَ وابنُك، وهنيئاً لزوجك إذ استعادت يدَيها الطّاهرَتين!

والتفتا إلى الملكة قائلَين:

ـ وداعاً أيّتُها الأمُّ الحنونُ، والمرأة الخَيِّرَةُ المُحْسِنة!

صاحت الملكة بزوجها منفعلةً:

ـ لا تَدَعْهما يذهبانِ! إنّهما رجلانِ كريمانِ! فقد أنقذا ولدي من المــوت، وقاداني خارجَ الغابةِ إلى هذا المكانِ! لا بُدَّ من مُكافــأتِهما على إحسانِهما!

وأخرجَ الملكُ من جَيبِه كِيساً مَليئاً بالذَّهب، وقدَّمه إلى الرَّجُلين شاكراً لهما صَنيعَهما. ولكنّهما رَفضا أَخْذَ المال، وقالا بصوتٍ واحد:

ـ أيُّها الملِكُ! إنَّ هذه المكافَآتِ تكونُ للبَشَر، أمّا نحن فلا مُكافأةَ لنا إلّا أن تَعمل في الناس خيراً. أتعرف مَن نحن؟

سكَتَ الملكُ مستَغرِباً. ثم تابَعَ الرجلان قائلَين:

ـ نحن الرّغيفانِ اللّذانِ تصدّقتْ بهما زوجُكَ الفاضلةُ على الفقير، فكان إحسانُها سبباً في قَطعِ يدَيها!

نَكَسَ الملكُ رَأسه خَجَلاً ونَدَماً ، وقال :

ــ أُعاهِدُ اللهَ ، وزوجي ، وطفلي ، وشعبي ، وأُعاهِدُكما أيُّها الرجلان الكريمان ، على أن أكونَ ملكاً رحيماً مُحْسناً ، وداعياً إلى الإحسان .

ولمّا انتهى الملك من كلامه اختفى الرجلان عن ناظرَيه .

★

بعد ذلك اليومِ صَدَقَ الملك بوَعْده ، ونَعِمت البلادُ في ظِلّه بالخير والبَرَكات .

الكرسيّ المعَلّق

جلَسَ « المأمونُ » ، الخليفةُ العبّاسيُّ الشّهيرُ ، يَنظُرُ في قضايا الناس وشُؤونِ البلادِ ، ويَبْحَثُ مع وُزَرائه أَحْوالَ الإدارة العامّة .

دَخَلَ عليه أُمراءُ الحربِ وقُوّادُ الجيوشِ ، فعلِمَ منهم أنّ البيزنطيّينَ ، أو الرُّوم ، أعداءَ العرب ، وجيرانَهم في الشمال ، قد هاجَموا الحدودَ مرّاتٍ عديدةً . فأمرَهم « المأمون » بتأمين الأَسلحةِ اللاّزمة ، وتجهيزِ الجيوشِ تجهيزاً صالحاً ، للقضاء على العَدُوّ .

ولمّا خرج العسكريّون أذِنَ « المأمون » للعلماء بالدخول . وكان « المأمون » واسعَ الثّقافةِ ، يُحِبُّ العِلْمَ ويُكْرِمُ أصحابَه . وتقدَّمَ منه أحـدُ العلماءِ بكتابٍ يونانيّ قيّمٍ ، وأخبره بأنّه ترْجَمَ الكتابَ إلى العربيّة ، وقدَّم له النُّسْخَةَ المُترْجَمَةَ . تناولَ « المأمون » الكتابَ العربيَّ ، فقلبَ صَفَحاتِه بشوقٍ ، وقرأ بلذّةٍ بعضَ ما فيها . ثم صاح بحاجبِه :

ــ خُذْ هذا الكتابَ وزِنْهُ ، وأعْطِ صاحبَه الجليلَ مِثْقالَ وَزْنِهِ ذَهَباً !

وانصَرَفَ « المأمون » إلى العلماء يُحادِثُهم ، ويُناقِشُهم ، ويسألُهم عن أعمالهم ومؤلّفاتِهم . ولمّا انتهى المَجْلِسُ وزّعَ عليهم الأموالَ والهـدايا ، فخرجوا شاكرين .

ثمَّ دخـل الشُّعَراءُ على « المأمون » وراحُوا

يُنشِدونَه قصائِدَهم . ولمّا انتهَوا من الإنشادِ أشارَ « المأمون » إلى حاجبه ، فأعطى الحاجبُ كُلّاً من الشُّعراء كِيساً مليئاً بالذهب . وانصرفَ الشُّعَراءُ وهم يُرَدِّدون كلماتِ الشُّكرِ والدُّعاء .

★

كانَ اللّيلُ قد حلَّ . وشعَرَ « المأمون » بالتعب ، فأرادَ لنفسه الراحةَ . صاح بالخَدَم :

ــ أيُّها الغِلْمانُ ! حَضِّروا لي مَجْلِسَ غنـاءٍ ، وجَهِّزوا موائدَ الطَّعامِ والشَّراب .

ثم التفتَ إلى الحاجب وأمرَه :

ــ إذْهَبْ إلى « إسحاق المَوْصِلِيّ » واطلبْ منه أنَ يَحْضُرَ إليَّ .

وبعد قليل حضرَ « إسحاق الموصليّ » ، مُطرِبُ الخليفةِ المُفضَّلُ ، وأحدُ كبارِ المُطربين العربِ في ذلك العصرِ .

وجاء الخَدَمُ بالطعامِ والشرابِ ، وجاءت الجواري بآلات الطَّرَب . وتناوَلَ « إسحاق » عوداً راحَ يَعْزِفُ عليه أجملَ ألحانِه ، وهو يَتَرَنَّمُ بأجملِ أغانيه . وِ « المأمون » يُصغي إلى ذلك كُلِّه بطَربٍ وإعجاب .

في تلك اللَّحظةِ دخل كاتِمُ أسرارِ الخليفةِ ، وأَسَرَّ في أُذُنِ « المأمون » ببِضْعِ كلماتٍ . قام « المأمون » من مكانه فَوْراً ؛ وقال « لإسحاق » :

ـ أنا خارجٌ في مهمَّةٍ طارئة ، ولن يَطُولَ غيابي . إبْقَ هنا حتى عودتي .

وخرجَ . وبقيَ « اسحاق » ينتظرُ ، وطالَ انتظارُه . وأخيراً مَلَّ البقاءَ ، فقامَ عائداً إلى بيته .

★

سار « إسحاق » من القصر قاصداً بيتَه . وكان الظَّلامُ شديداً ، دامِساً ، فَضَلَّ طريقَه . دخلَ زُقاقاً ضيِّقاً وهو لا يدري . وفيما هو يَتَلَمَّسُ طريقَه كالأَعمى ، أمسكتْ يداهُ بشيءٍ مُعَلَّقٍ بحبلٍ غليظ . نظرَ « إسحاق » إلى الشيءِ المعلَّقِ ، وتفحَّصَه جيِّداً ، فوجدَه كُرْسِيّاً كبيراً مُغطّى بالمُخْمَلِ والحريرِ . قال في نفسه : « غريبٌ أَمرُ هذا الكرسيِّ المعلَّق ! لِأَجلِسْ فيه ، علَّني أعرِفُ الغايةَ منه ! »

جلس « إسحاق » في الكرسيّ . وفجأةً شعَرَ به يُجْذَب بالحِبال إلى فوق . وبعد ثوانٍ وجدَ نفسه

على سَطح إحدى الدُّورِ ، وحولَه جوارٍ بأَيْديهنَّ شُموعٌ . قالت له إِحْداهُنَّ :

ــ إنْزِلْ أيُّها السَّيِّدُ على الرُّحْب والسَّعة .

وسارت الجواري أمامَه حتى أَدْخَلْنَه قاعـــةً واسعةً فُرِشَتْ بأَجْملِ الأَثاثِ والرِّياشِ .

زادتْ حَيْرةُ « إسحـاق » ، وراح يتساءلُ عن صاحبِ الدارِ ، وعن الكرسيِّ المعلَّق ، وعمَّا يدورُ حولَه . وما هي إلاّ دقائقُ حتى دخلت عليه صَبِيَّةٌ كأنَّها البَدْرُ الطَّالعُ ، قد أَحاطتْ بهـــا الجواري وهُنَّ يَحْمِلْنَ المَشاعِلَ ومَجـــامِرَ البَخُور . تقدَّمتِ الصبيَّةُ من « إسحاق » وقالت :

ــ أهلاً بك ومَرْحَباً من زائرٍ أتانا صِدْفَةً .

ثم أَشارتْ عليه بالجلوس في صَدْرِ القاعة ، فجلس مذهولاً .

سألَتْه :

ــ من ضَيْفُنا الكريمُ ؟

أجاب « إسحاق » :

ــ تاجرٌ غريب أتى هذه المدينةَ ، فضَلَّ سبيلَه ، وتاهَ في طُرُقاتِها ، حتى دخل هذا الزُّقاق . وجد فيه كرسيّاً معلَّقـــاً فدفعَه حبُّ المُغامرةِ إلى أن يَجْلِسَ فيه . وهكذا تَرَيْنَني الآنَ أمامَكِ يا سيِّدتي .

سألته :

ــ أتَحْفَظُ شيئاً من الأَشعارِ تُلقِيها علينا ؟

قال « إسحاق » :

ــ أَحفظُ منها الشيءَ اليسيرَ يا سيِّدتي . فهلْ لكِ أن تَبْدئي بإلقاءِ ما تعرفين من الشِّعر حتى أتذكَّرَ ما أعرفُ منه ؟

وأخـــذت السيِّدةُ الجميلةُ تتلو على مَسامِعِ

« إسحاق » أجملَ الأَشعارِ وألطَفها . وتلا عليها « إسحاق » ما كان يحفَظُ .

ومن الشِّعر انتقلا إلى الأَخبار ، فسرَدَ عليها « إسحاق » أَخبارَ الملوكِ والقُصور . قالت له السِّيدةُ مستغربةً :

ــ تاجرٌ ، وتَعرفُ هذهِ الأخبارَ كلَّها ؟

ــ لا عَجَبَ يا سيِّدتي . فلي صديقٌ هو نَديمُ أحد الأُمراءِ ، فحفِظْتُ عنه ما ذكَرْتُ .

وحُمِلَ إليهما الطَّعامُ والشَّرابُ ، فأكلا وشَربا . و« إسحاق » مذهولٌ لا يُصدِّقُ ما يجري . وأفاقَ من ذُهولِهِ على صوتِ ربَّةِ البيتِ تسأَلهُ :

ــ أَتعرفُ الغِناءَ ؟

أجاب :

ــ أَحبَبْتُ الغناءَ وتعلَّمتُه وأنا شابٌّ . فهل لكَ

أن تبدئي بالغناء يا سيِّدتي ؟

تناولت السيِّدةُ عوداً مُرَصَّعاً بالعاج ، وأخذتْ تُداعِبُ أوتارَه برِفْقٍ ، ثمّ أخذتْ تُرافِقُ نَغَماتِه العَذْبَةَ بصوتِها الجميلِ الحنونِ .

طَرِبَ « إسحاق » ، وراح يَهُزُّ رأسه يَمْنَةً ويَسْرَةً . وصاح :

ــ أَحْسَنْتِ ياسيِّدتي ، وأَبْدَعْتِ !

ــ أَتعْرِفُ مَنْ هو صاحِبُ هذه الأَغاني والأَلحانِ ؟

أجاب « إسحاق » وهو يَضحَكُ في سرِّه :

ــ كلاّ . فمَن يكونُ ؟

ــ إنَّه « إسحاق الموصليُّ » ، مُغنِّي الخليفة المشهور. أَتعرفُه ؟

— لا ياسيِّدتي ، لا أعرِفُه .

ودخلتِ القاعةَ سيِّدةٌ عجُوزٌ ، خاطبتْ صاحبةَ الدّار بقَولها :

— يا بُنيَّتي ، الوقتُ قد تأخَّرَ ، والفَجْرُ لاحَ ، وحانَ وقتُ النَّوم .

قامتِ السيِّدةُ من مَكانِها . وأَشارَتْ إلى « إسحاق » بالوقوف ، وطلَبَتْ من إحدى جَوارِيها أن تَتقدَّمَه بالمَشْعَلِ . ولكنَّها طلبتْ منه ، قبل أن يَنْصَرِفَ :

— أُسْتُرْ ما رأيتَ وما سَمِعتَ ، ولا تُخْبِرْ به أحداً ، واحْفَظْ أسرار الناس . وَداعاً !

★

أَسْرَعَ « إسحاق » إلى بيته . نامَ نوماً عميقاً

استَيْقَظَ منه ، في عَصْرِ اليومِ التّالي ، على صوتِ رَسولٍ يَأمُرُه بالذَّهابِ إلى الخليفةِ في الحال .

دَخلَ « إسحاق» على « المأمون » ، فوجَدَه بانتظارِه ، وقد وقفتْ حوله الجواري ، من مُغنِّيات وعازفاتٍ ، يَنْتَظِرْنَ قُدومَ « إسحاق» .

غنَّى « إسحاق» كعادتِه ، وأَطْرَبَ . وعندَ حُلول اللَّيلِ دَخلَ على « المأمون » كاتِمُ أسرارِه ، وهَمَسَ في أُذُنِه بكلماتٍ قامَ « المأمون» على أَثَرِها من مَجْلِسِه . وقبلَ أن يُغادِرَ « المأمون » المكانَ طَلَبَ من « إسحاق » ، كما فَعَلَ في اليومِ السّابقِ ، أن يَبْقى بانتظارِه .

وانتظرَ « إسحاق » ساعةً . ثم ساعةً أُخْرى . ولم يَرْجِعِ « المأمون » . وتذكَّرَ « إسحاق » حادِثةَ البارِحةِ ، فأَحسَّ برَغبةٍ شديدةٍ في مُشاهدةِ السَّيِّدةِ

المَجْهولَةِ التي التقاها في دارها ، وفي سَماعِ حديثِها وغِنائِها . فقامَ تَوّاً ، وتركَ القصرَ خفيةً ، متجاهِلاً أوامرَ الخليفة .

لمّا وَصَلَ « إسحاق » إلى الزُّقاق وَجَدَ الكُرْسيَّ مُعلَّقاً في مكانِه . صَعِدَ إليه ، وما لَبِثَ أن ارتَفَعَ به إلى سَطْحِ الدّار . ومنه دَخَلَ إلى القاعة الكبيرة .

بعد قليلٍ دخلتْ سيِّدةُ الدارِ وقالت :

ــ ضيفُ البارحةِ ؟

ــ نعم واللهِ ! لقد اشتَقْتُ لِما جرى في الأَمس ، فهلْ تَرَيْنَني أخطأتُ في الحضور يا سيِّدتي ؟

ــ أهلاً وسَهْلاً بكَ اليومَ . ولكنْ هذه هي المرَّةُ الأخيرةُ التي أسمَحُ لكَ فيها بالحضور .

وأخذت تُحادِثُه كما فعلتْ في اللَّيلةِ السّابقةِ ،

وانتهت الجلسةُ بالغناءِ والعَزْفِ .

ولمّا هَمَّ « إسحاق » بالذّهاب تذكَّرَ « المأمون » ، وعرَفَ أنّ الخليفةَ سيُنْزِلُ به أشدَّ العِقابِ لمخالفتِه رغبتَه في أن يبقى عندَه . ولكنَّه توصَّلَ إلى حيلةٍ تُخلِّصُه من غضبِ « المأمون » ، فقال للسيِّدة :

ــ أتأْذَنينَ لي يا سيِّدتي بأن أَذْكُرَ شيئاً مرَّ في خاطِري ؟

ــ قُلْ ، ولا تَخَفْ .

ــ وَجَدْتُكِ يا سيِّدتي تُتقِنين العَزْفَ والغِناءَ ، وتُحِبِّينَ سَماعَ الصوتِ الجميلِ واللَّحنِ البديع . ولي ابنُ عَمٍّ هو أحسنُ الناسِ مَعْرِفَةً بالغناء والطَّرَبِ . وهو ، إلى ذلك ، مُحدِّثٌ شهيرٌ ، وأديبٌ عالم . فهلْ تَرْغَبين في حضوره إليك غداً بصُحْبَتي ؟

أطرقتْ رَبَّةُ البيتِ قليلاً ، ثم قالت :

ـ إن كان ابنُ عَمِّكَ كما وَصفْتَ ، فلا بَأْسَ من حُضوره .

ـ شُكراً سيِّدتي . سوفَ تَرَيْنَ أكثرَ ممّا ذكرْتُ .

وعادَ « إسحاق » إلى بيته مطمَئنَّ البالِ : سيُخبرُ الخَليفةَ بأمرِ السيِّدةِ المجهولةِ . و« المأمون » يُحِبُّ النِّساءَ المثقَّفاتِ . وسيَدْعوه إلى زيارتِها معَـه في اللَّيلةِ التالية . وسيَقْبلُ « المأمون » الدَّعوةَ .

وحينَ دخلَ « إسحاق » بيتَه هَجَمَ عليه جنودُ الخليفةِ ، فأمسَكُوا بِهِ وجَرُّوه إلى الخليفة جَرّاً .

كان « المأمون » ينتظِرُه والشَّرَرُ يتطـايَرُ من عينَيه . صاح « باسحاق » :

ـ وَيْلَكَ يا « إسحاق » ! أتخرُجُ عن طاعتي مرَّتينِ ؟

قال « إسحاق » بصوتٍ مرتجفٍ :

ـ لا واللهِ يا أميرَ المؤمنين . لي عُذْرٌ في ذلك .

وأخبَرَه « إسحـاق » بقصَّةِ الكرسيِّ المعلَّق ، والسيِّدةِ ، والمجلِسِ . و« المأمون » يَزْدادُ شَوْقاً إلى لقاءِ السيِّدة المجهولةِ كلّما ازدادَ وصفُ « اسحاق » .

وأخيراً صاح « المأمون » :

ـ وكيف السَّبيلُ لمشاهدةِ ما وَصَفْتَ ؟

أجاب « إسحاق » :

ـ طَلبْتُ من السيِّدة أن أصطَحِبَـكَ اليومَ إليها ، على أنَّـك ابنُ عمِّي ، ووصفتُ لها أدَبَك وعلمَك وفَنَّك . فأرجو ياسيِّدي أن تتظـاهرَ في مَجْلسِها بأنَّك ابنُ عمِّي ، وسترى من لُطْفِها وأدَبِها وفنِّها ما لم تَرَهُ في حياتك .

إبتسم « المأمون » وقال :

— لولا ما ذكَرْتَ يا « إسحاق » لمَا سَلِمتَ من عِقابي . سأفعَلُ ما تَطلُبُ منّي في سبيل أن أرى هذه المرأةَ .

★

في الليلةِ التالية سار « المأمون » مع « إسحاق » وهو على أحرَّ من الجَمْر . كانا مُتَنكِّرَين بزِيِّ التُّجّار . ولمّا وصلا إلى الزُّقاق وجدا كُرْسِيَّين معلَّقَين بانتظارهما . فصَعِدا إليهما ، وفَجْأةً رُفِعا إلى السَّطح . قال « إسحاق » :

— حَذارِ يا مَولايَ أن تنادِيَني أمامَ السيِّدةِ باسمي . فهي لا تَعرِفُني على حقيقتي .

تقدَّمت الجواري منها وسِرْنَ بهما إلى القاعة . ودخلت رَبَّةُ البيت كالمُعتادِ ، وأقبلتْ على الضَّيفين تُرَحِّب بهما ، وخاطبتِ « المأمون » قائلةً :

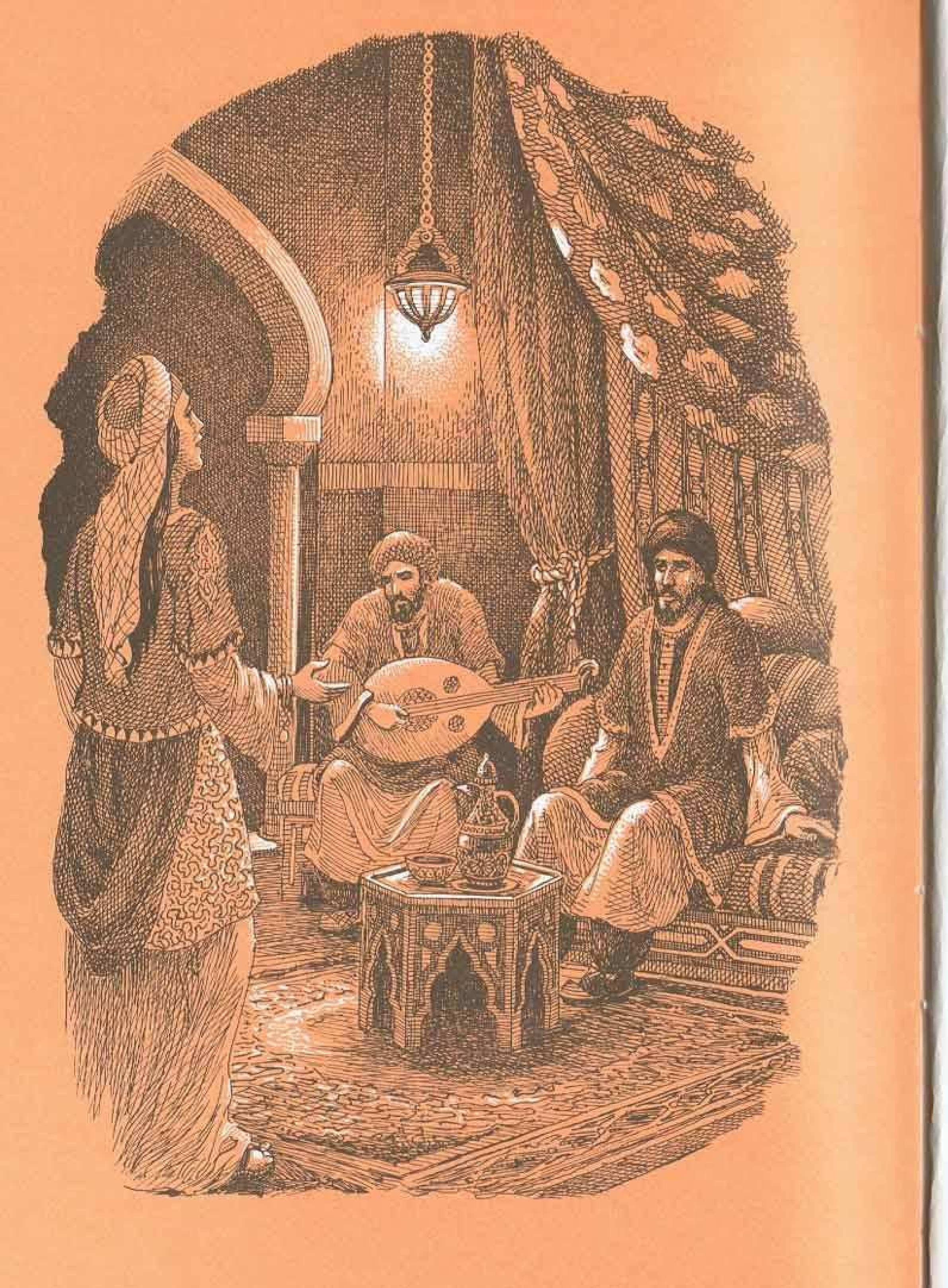
— إنْتقِلْ من مَكانِك إلى صَدْرِ الغرفةِ ، فأنت ضيفٌ جديد. وللضيفِ الجديدِ صَدرُ المَنْزِل .

وقامَ الخليفة فجلس حيث أشارتْ . وجلست هي قُرْبَهُ تُحادِثُه ويحادِثُها ، وتُنشِدُه الأَشعارَ ويُنشِدُها . أُعجِبَ بها « المأمون » أيَّما إعجابٍ ، ووَجد أنَّها تفوق بجمالها ، وظَرْفِها ، وذكائها ، ما وصَفَه له « اسحاق » . وازداد شوقُه إلى معرفةِ حقيقةِ أمرِها .

ثم أَحضَرَت إحدى الجواري آلاتِ الطَّربِ ، فطلبت السيِّدةُ من « المأمون » أن يُغنِّيَ ويَعزِفَ . فقاطَعَها « إسحاق » على الفَوْر :

— سيِّدتي ، ابنُ عمِّي ضيفٌ ، وحَقُّ الضَّيفِ أن يَنتظِرَ التَّشجيعَ أوّلاً . فشَجِّعيه بغِنائك .

لم ترفُضِ الدَّعوةَ ، بل تناولت العُودَ وأخذت



تَضْرِبُ عليه بفنٍّ لا مَثيلَ له . ثم غنت غناءً جميلاً أطربت به « المأمون » وسَحَرَتْه . فنَسِيَ « المأمون » ، من فَرْطِ طَربه وحماستِه ، الدَّورَ الذي كان يُمَثِّلُه ، ونسيَ التَّخفِّي ، فصاح بصوتٍ عالٍ :

ـ يا « إسحاق » !

وقفَ « إسحاق » من غير تفكيرٍ أو تردُّدٍ ، وسَجَدَ بين يدَيه قائلاً :

ـ لَبَّيْكَ يا أَميرَ المؤمنين !

ـ غَنِّ هذه الأُغنيةَ حالاً !

أمّا السّيدةُ فقد اختفت عن الأَنْظارِ لمّا عَرَفَتْ من حديث الرَّجُلَينِ أنَّهما « المأمون » و « إسحاق الموصلي » !

تلفَّتَ « المأمون » في أرجاءِ القاعة يبحثُ عنها ،

فلم يَجِدْها . فأمر « إسحاق » أن يسألَ عن صاحب البيتِ ، وعن الفتاة .

★

خرج « إسحاق » من القاعــــة ، فالتقى المرأةَ العجوزَ التي رآها في السّابق . كانت ترتَجِفُ من الخوف . سألها « إسحاق » عن صاحب المنزِل ، فقالت إنّه « الحَسَن بن سهل » وزيرُ الخليفةِ ، وإنّ الفتاةَ هي ابنتُه .

عادَ « إسحاق » إلى « المأمون » فأخبره بالحقيقة . فصاح « المأمونِ » :

— جِئْني « بالحسن» حالاً ! ..

وبعد فَترةٍ عاد « إسحاق » ومعه « الحسن » . فحيّا « الحسن » الخليفةَ وهو مستغرِبٌ وجودَه في بيته . فخاطبه « المأمون» باندفاع :

— هل لكَ ابنةٌ صبيّةٌ يا « حسن » ؟

— نعم يا مولاي !

— أهي عَزْباءُ ، أم متزوِّجة ؟

— بل عَزْباءُ يا مولاي !

— إنّي أَخْطُبُها إليكَ يا « حسن » !

— هي لكَ يا مولاي !

— وما اسم ابنتِك ؟

— « بوران » .

★

بعد أُسبوع تزوَّجَ « المأمون» « بوران » ، وكان زواجُهما حديثَ الناس ، تناقلتْ أخبارَه وأفراحَه الأَجيالُ ، ودَوَّنَتْها القِصَصُ .

غَدرٌ ووَفاء

ركِب «بَسَّام» حصانَه ، وسارَ في الطَّريق الذي كان يَحْلُمُ به دائماً .

سارَ في طريقٍ لا يَعرِفُه ، وَسْطَ غابَـةٍ لا يَعرِفُها ، إلى بلادٍ لا يَعرِفُها . وكان سَعِيداً بكلِّ ما يَراه في طريقِـه ويَسمَعُه : كان يُزَقْزِقُ مع العَصافيرِ ، ويَقفِزُ مع الغِزْلانِ ، ويَرْقُصُ مـع القُرُودِ ، ويَتَمايلُ مـع الأَغْصانِ ، ويَسِيلُ مع الجداولِ .

كان سَعِيداً لأنه كانَ من قَبْلُ يَتخيَّلُ نَفْسَه دائماً

في هذا الطَّريقِ . وكان دائماً يفكِّرُ بالخُروجِ من بَلْدَتِه إلى عالَمٍ كبيرٍ ، مَجْهُولٍ ، مَسْحُورٍ ، فيه المُدُنُ العَظيمةُ بمياهِها ومَرافِئِها وسُفُنِها ، وفيه الشُّعوبُ المُخْتَلِفَةُ بعاداتِها ولُغاتِها وطُرُقِ حياتِها . كانَ يَقولُ لأُمِّه :

ــ ما أَجْمَلَ العالَمَ الكَبيرَ يا أُمَّاهُ !

فتُجيبُه أُمُّه :

ــ وما أَبْعَدَ أَحْلامَ الشَّبابِ يا بُنيَّ !

وأخيراً تَمَّ له مـــا أرادَ ، فتَجَهَّزَ للسَّفَرِ ، وسارَ في طريقِه . وهـا هوَ الآنَ سائحٌ في عالَمِه الكبيرِ ، المجهولِ ، المسحورِ .

★

وَصَلَ ليلاً إلى أبوابِ أوَّلِ مدينةٍ يُصادِفُها في طريقِه . ولكنَّه لم يَدْخُلْها ، بَلْ فضَّلَ أن يَبيـــتَ

لَيْلَتَه في الغابـة ، وأن يَدخُلَ المدينةَ في صَباحِ اليومِ التَّالي .

تَمـدَّدَ تحتَ شَجَرةٍ كبيرةٍ ، وتَغَطَّى بعَباءته ، ونامَ نَوْماً عَميقـــاً . وفي السَّاعاتِ الاوْلَى من الفَجْرِ راحَ يَصيحُ في نَومِه :

ــ أَنقِذُوني ! خَلِّصُوني !

وأخَذَ يُلوِّحُ بِيَدَيه يَميناً وشِمالاً . فاصْطَدَمتْ إِحْدَى يدَيه بالشَّجَرةِ ، فاسْتَيْقَظَ للحالِ من نَومِه . نَظَرَ حولَه خائفاً ، ولكنَّه اطْمَأَنَّ بعدَ قَليلٍ ، وقالَ في نَفْسِه :

ــ شُكْراً لله ! أنا في الغابةِ ، لا في البحرِ كما رأيتُ في حُلمي ! أنا على الأَرضِ سالِمٌ ، ولَسْتُ غَريقاً بينَ الأَمْواجِ .

وفَجْأَةً علا في الغابة صُراخٌ حادٌّ :

ـــ أنقِذُوني ! خلِّصُوني !

وتَبِعَ الصُّراخَ زَمْجَرَةٌ وفَحِيحٌ وصُياحٌ ، فارْتَجَفَ «بسّام» من الخوفِ ! تُرى ، هل هو في حُلمِه يَصيحُ : «أنقِذُوني ! أنقِذوني !» أم هو يَسْمَعُ حقّاً هذه الأَصواتَ الغَريبةَ تأتيه من الخارج؟

وعادَ الصُّراخُ قَوِيّاً :

ـــ أَنقِذُوني يا أهلَ الخيرِ !

وعادتْ ، مع الصُّراخِ ، الزَّمْجَرَةُ والفَحِيحُ والصُّياحُ .

نَهَضَ «بسّام» ، ووقفَ يَنظُرُ ناحِيةَ الصَّوتِ . ثم لاحَ الصُّبْحُ ، وظَهَرَ من الشَّمسِ نُورٌ خَفيفٌ ، فتقدَّمَ «بسّام» على مَهْلِهِ إلى مَصْدَرِ الصَّوت . وبعد ما قَطَعَ مَسافةً سَمِعَ الصُّراخَ نفْسَه ، وقد ازْدادَ قُوَّةً ووُضوحاً :

ـــ أنْقِذوني ! خَلِّصُوني !

كان الصَّوتُ يَنْبَعِثُ من الرَّوْضَةِ التي يَسيرُ «بسّام» في اتِّجاهِها . حدَّقَ إلى المكانِ الذي يَخرُجُ منه الصَّوتُ ، فرأى في الأَرْضِ حُفْرَةً تُغَطِّيها الأَعْشابُ وتكادُ تُخْفِيها عن الأَنظارِ . إقتَرَبَ من فُوهَةِ الحُفْرَةِ وصاحَ :

ـــ مَن هنا ؟ مَنِ المُنادي ؟

وللحالِ أتاه الجوابُ من قَلْبِ الأَرْضِ :

ـــ أَنْقِذْني أيُّها الأخُ الكريمُ ! أرْجوكَ ! لقد وقعتُ في هذه الحُفرةِ ليلاً . أَنقِذْني ، رُحْماكَ !

ثم عَلَتْ أَصواتٌ أُخرى غَريبةٌ من داخِلِ الحُفْرةِ ، فخافَ «بسّام» ...

وعادَ الصَّوتُ الأَوَّلُ يقولُ :

ـــ لا تَخَفْ يا أَخي ! إنَّ معي في الحُفرةِ نَمِراً

وَحَيَّةً وقِرْداً ، وقد وقعتْ كلها مِثلي .

قالَ « بسّام » وهو لا يُصدِّقُ :

ــ نَمِرٌ ، وحَيَّةٌ ، وقِرْدٌ ، وأنتَ ما تَزالُ حَيًّا ؟

ــ أَجلْ يا أخي ! لقد اجتَمَعْنا في مُصيبةٍ واحدةٍ ، فلم تُؤذِني الوُحُوشُ ... باللهِ عليكَ ، ساعِدْني ، وأخْرِجْني من هذهِ الحُفرةِ !

أجاب « بسّام » :

ــ إنتظِرْني قليلاً . سأرمي إليك بطَرَفِ حَبْلٍ تتعلَّقُ به فأسْحَبُكَ إلى فوق .

جاء « بسّام » بحَبْلٍ رمى طَرَفَه في الحفرةِ ، ورَبطَ طرَفَه الآخَرَ في سَرجِ حصانِه. ولمّا شَعَرَ بأنّ الحَبْلَ قد شُدَّ من داخِلِ الحُفرةِ ، أمْسَكَ بزِمامِ حصانِه وسَيَّرَه ببُطءٍ ، وهو يَنتظِرُ خُروجَ

الرَّجُلِ من داخِلِ الحُفرة . ولكنَّ « بسّام » لم يرَ في الحَبْلِ رجلاً ، بل رأى النَّمِرَ يَخرُجُ إلى سَطْحِ الأَرض !

خافَ « بسّام » خوفاً شديداً ، وارتَدَّ إلى الوَراءِ محاولاً أن يَهرُبَ . ولكنَّ النَّمِرَ تقدَّمَ منه ، وسَجَدَ له ، وقال :

ــ أيُّها الإنسانُ الكريمُ ! شُكْراً لكَ على مُساعدَتِك ! لقد أنقذْتَ حياتي ، ولن أنسى لك فَضْلَكَ ! أنا أعيشُ بين هذه الأشجارِ القريبة ؛ فإن احتَجْتَ إليَّ يوماً فنادِني أحضُرْ إليك سَريعاً .

وعادَ « بسّام » فرمى الحبلَ في الحُفْرة . ولمّا سَحَبه رأى القِردَ متعلِّقاً بطَرَفه . وما إن وضَعَ القِردُ قدَمَيه على الأرض حتى أخذَ يَقفِزُ بفرحٍ

وسُرور . ثم تَقَدَّمَ من « بسّام » وقال له :

ــ شُكراً لك أَيُّهـا الإنسانُ ! مَعْرُوفُك أَنقَذَني من الهلاك ، وسيَبْقى دَيْناً عليَّ . أنا أَعِيشُ في رُقْعَةٍ من الغابة قُرْبَ هذه المدينةِ . فلو مَرَرْتَ بها يوماً وَجَدْتَني في انْتظارِك لأُكافِئَك على عملِكَ الصَّالِح .

وتقدَّم « بسّام » من الحُفرة وصاح :

ــ والآنَ جاءَ دَوْرُكَ أيُّها الرَّجُل ، فعَجِّلْ بالصُّعُود .

ثم رمى الحَبْلَ في الحُفرة للمرَّةِ الثَّالِثةِ . وكَمْ كانتْ دَهْشَتُه عَظيمةً حينَ سَحَبَ الحبْلَ ووَجَدَ الحيَّةَ مُلتفَّةً عليه ! وبِبُطءٍ زَحَفتِ الحيَّةُ نحوَ « بسّام » ، وقالت له :

ــ لن أَنْسى صَنيعَكَ الجميلَ أيُّها الإنسانُ !

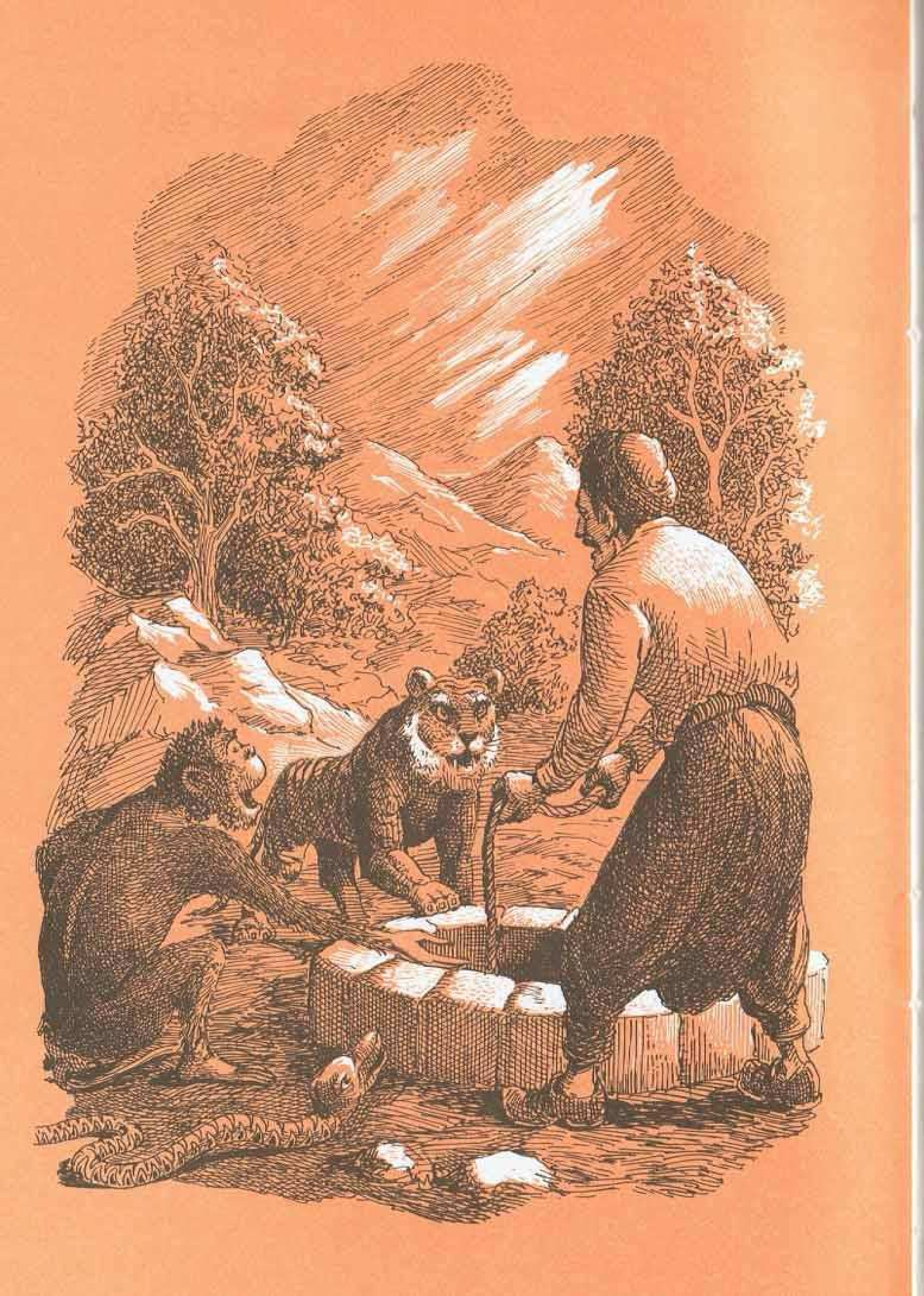
نحنُ ، مَعْشَرَ الحيَّاتِ ، لا نَنْسى المعروفَ . أنا أَعيشُ ، مع أَخَواتٍ لي ، في جانبٍ من سُورِ المدينةِ . وساعةَ تَمُرُّ بذلك المكانِ ستَلْقاني في انتظارِك . أَبْشِرْ خيراً !

وتساءل « بسّام » :

ــ ما بالُ الرَّجُلِ قد تَرَكَ الحَيَواناتِ كلها تَخرُجُ قبلَه ؟ لا بُدَّ من إنقاذِه.

ولمّا حاوَلَ أن يَرمِيَ الحبلَ في الحُفرةَ صاحتْ به الحيواناتُ الثَّلاثةُ بصوتٍ واحد :

ــ لا ! لا تُساعِدْ هذا الوجلَ ! فهو شرِّيرٌ ناكِرٌ للجميل ! دَعْه في مكانِه وسِرْ في طريقِك ! هذه هي نَصيحَتُنا المخلِصَةُ لك . ساعَدْتَنا وخَلَّصْتَنا ، ونحن نُريد بك خيراً .



تعجَّبَ « بسّام » من كَلامِ الوُحوشِ ، وقال في نفسه :

ـ لقد خَلَّصْتُ هذه الحيواناتِ ، فكيف لا أُخلِّصُ هذا الرَّجُلَ ؟

ورمى بالحبل في الحُفرة لا يُبالي بكلامِ الوُحوشِ ونَصائِحِها . ولمّا رأته الوُحوشُ الثَّلاثةُ يُحاوِلُ إنقاذَ الرَّجُلِ حَيَّتْه ، ثم انصرفتْ عنه مُسرِعةً .

خرجَ الرجلُ من حُفرته ، فأسرعَ إلى « بسّام » يُقَبِّلُ يدَيه ، ويَشكُره قائلاً :

ـ ألفَ شُكرٍ أيُّها الأَخُ الكريمُ ! سأذكُرُ مَعروفَك طَوالَ عُمري ! أنا صائغٌ شهيرٌ في هذه المدينة ، وسأكونُ سَعيداً لو زُرْتَني فيها يوماً

لأرُدَّ لك بعضَ الجَميلِ الذي بَذَلْتَه من أجلي .

★

قرَّر « بسّام » أن يُتابِعَ رِحْلَتَه من غير أن يدخُلَ المدينةَ . وفكَرَ في نفسِه :

— أصبحَ لي في هذه المدينةِ صديقٌ وَفِيٌّ ، هو الصائغُ الذي خَلَّصْتُه من الموت . فلو دخلتُ المدينةَ اليومَ لَبَقِيتُ فيها مُدَّةً طويلةً عندَه . ولَرُبَّما مَنَعَني من مُغادَرَتِها ، وعند ذلك لا أتمكَّنُ من رُؤيةِ العالَمِ الكبيرِ الذي أُحبُّ رؤيتَه . الأَفضلُ أن أُكمِلَ رِحلتي الطويلةَ . وفي طريقِ العَودةِ أَمُرُّ بهذه المدينةِ وأزورُ صديقي .

وهكذا كانَ .

تابَعَ « بسّام » سَيرَه ، فلم يترُكْ مدينةً إلاّ زارَها ، ولم يترُكْ بَحْراً إلاّ رَكِبَه ، ولم يترُكْ

شَعْباً إلا عاشَ معه ودَرَسَ طُرُقَ مَعيشتِه . وقد مَضى عليه في هذه الرِّحلةِ أَشْهُرٌ طويلةٌ ، عَرَفَ خِلالَها أَقْصى السَّعادةِ .

لقد تحقَّقَ حلمُه ، فشاهَدَ الدُّنيا البعيدةَ ، وتَعَلَّمَ أشياءَ لم يكنْ يَعرِفُها من قَبْلُ .

★

ولمّا انتهى « بسّام » من جولَتِه الطَّويلةِ سَلَكَ طريقَ العَودةِ . فوَصَلَ إلى المدينةِ التي فيها صَديقُه الصائغُ . كان الوقتُ عَصْراً ، والشَّمسُ قد بدأَتْ تَميلُ إلى المَغيبِ . جلَسَ « بسّام » على تَلَّةٍ صغيرةٍ وَسطَ الغابةِ يَستريحُ من عَناءِ السَّفَر ، وأَخَذَ يتذكَّرُ الحادِثةَ التي جرَتْ له مع الصّائغِ والوُحوشِ الثلاثةِ في المكانِ ذاتِه .

وفيما هو يفكِّرُ ويتأمَّلُ إذا بصديقه القردِ يَقفِزُ

نحوَه ، ثم يقِفُ بينَ يدَيه قائلاً :

ــ أَهلاً بك أَيُّها الإِنسانُ الكريم ! لقد رأيتُك عائداً ، فأَسرَعْتُ إليك لأُحيِّيك ، ولأُقــدِّمَ لك فاكهةً لذيذةً تَسُدُّ جُوعَك وتُطفِئُ عطَشَك .

شكرَ « بسّام » صديقَه القردَ على هديَّته ، وجلس القردُ على قفــاه يَنظُرُ إلى « بسّام » يأكلُ الفاكهةَ بلذَّة . ولمّا انتهى « بسّام » من أكله نَهَضَ القردُ مُوَدِّعاً وقال :

ــ لا بُدَّ أنَّك ستدخُلُ المدينةَ ، قبلَ أن تعودَ إلى بلادك . وسأكونُ بانتظارك عندَ خروجِك منها لأودِّعَك الوَداعَ الأخيرَ .

قال القردُ هذا وانصرفَ . أمّا « بسّام » فقد بَحَثَ عن مكانٍ ظليلٍ يَقضي فيه اللَّيلَ ، ثم استلقى فيه يُريدُ النَّومَ . وبينَما هو يُراقِبُ النجومَ سعيداً

باستِرخائه ، إذا به يَسْمَعُ زئيراً قريباً . لم يَخَفْ « بسّام » لأنّ الصَّوتَ كان مألوفاً لَديه . ولمّا نَظَرَ حولَه رأى صديقَه النَّمِرَ جاثِياً تحت قدَمَيه يَنظُرُ إليه بعَطْف . قال النمرُ :

ــ يا صديقي ، أيُّها الإنسانُ النبيلُ ! أخبرَني صديقُنا القِردُ بوجودك ، فدخلْتُ المدينة وأتيتُك منها بهذه الهديَّةِ الصغيرةِ .

ورمى النمرُ بين يدَي « بسّام » صُرَّةً ثقيلةً . وما إن فتحَها « بسّام » حتى شَهَــقَ من عَجَبِه ، وصاحَ صَيْحَةَ فَرَح . مــاذا رأى ؟! كان في الصُّرَّة جَواهرُ نفيسةٌ لا تُقدَّرُ بمال : هــذا عِقدٌ من الماس ، وهذا سِوارٌ من الزُّمُرُّد ، وهذا قِرْطٌ من الياقوت ، وهذا خاتَمٌ من اللُّؤلُؤ . لم تقعْ عينا « بسّام » على مِثل هذه الجواهرِ من قَبْلُ ! ولكنْ

كيف أتى بها النمرُ ، ومن أينَ ؟

والتفت « بسّام » ليسألَ النمرَ عن الجواهِر ، فوَجدَه قد اختفى .

قال « بسّام » في نفسه :

ـــ هذه البَهائمُ قد ردَّتْ لي مَعْرُوفي ، فكيف لا يَرُدُّه لي الصَّائغُ ؟سأذهبُ غداً إليه ، وسأطلُبُ منه أن يَبيعَ لي هذه الجواهرَ . وحين أقبِضُ ثمَنَها أعودُ إلى بلادي وأهلي بمالٍ كثير .

نامَ « بسّام » تلكَ اللَّيلةَ نَوماً هَنيئاً . وفي اليوم التالي قامَ من نوَمِه نَشيطاً ، ثم سارَ إلى المدينــــةِ فدَخلَها صباحاً . ولمّا بدأتِ الحياةُ في شوارِعِها وأسواقِها أخذَ يَسألُ عن الصَّائغِ ، فدلَّه أَحدُهم على منزِله ، فذَهبَ إليه .

إستَقبَلَه الصَّائغُ بالتَّرْحاب ، وقدَّمَ له الفَطُورَ ،

وجَلَسا يتحادَثانِ . ثم قال « بسّام » للصَّائغ :

ـــ أُريدُكَ أن تبيعَ لي هذه الجواهرَ ، وسَوف أُعْطيك بعضَ ثَمَنِها جزاءَ سَعْيِك وتعبِك .

نظرَ الصَّائغُ إلى الجواهِرِ ، فأخَذَتْه الدَّهْشةُ ! هذه الجواهرُ هي لأميرةِ البلادِ ، وقــد سُرِقَتْ أَمْسِ ، وعَرفَ بالسَّرقة أهلُ المدينةِ كُلُّهم ! فكيف وصلتْ هذه الحُليُّ الثَّمينةُ إلى « بسّام » ؟

لم يَسأل الصَّائغُ « بسّام » عن مَصْدَرِ الجواهرِ ، بل قال له بلُطفٍ :

ـــ إنتَظِرْني هنا قليلاً . أنا خارجٌ إلى السُّوق لأَشتريَ بعضَ الحاجاتِ ، وسأعودُ إليك في أسرعِ وَقْتٍ .

ولكنَّ الصَّائغَ لم يذهبْ إلى السُّوق ، بل اتَّجَهَ

رأساً إلى القصر ، وطلب مُقابلةَ الملكِ في أمرٍ هامٍّ .

ولمّا أذِنَ له الملكُ بالدُّخول سَجَدَ الصَّائغ وقال :

ـــ يا مَولايَ ! لقد أمسَكْتُ باللصِّ الذي سَرَقَ حُليَّ الأميرة . جاءَ إلى بيتي يَبيعُني إيّاها ، فأبْقَيتُه هناك وجئتُ أُخبرُك بالأمر .

ـــ أحقّاً تقولُ أيها الصَّائغ ؟ إن كنتَ صادِقاً في كلامك فلكَ عندي مكافأةٌ ماليَّةٌ ثمينة .

ثم نادى الملكُ الجنودَ ، فانطلَقُوا برِفقة الصَّائغِ إلى بيته . دخلُوا على « بسّام » ، فأمسكُوا به ، وانتزعُوا منه الجواهرَ ، وصاحَ به قائدُهم :

ـــ أيُّها السَّارِق السَّافِلُ ! كيف تجرَّأتَ على

سَرِقة أميرةِ البلاد ؟ هَيّا بنا ! سيُنزِلُ بك الملكُ أشدَّ العِقابِ !

نَظَرَ « بسّام » إلى الجنود كالأَبْلَه . لماذا يَصيحون به ؟ لماذا يقولون إنّه سارِقٌ ؟ لقد أخذُوا منه الجواهرَ ، وهي له . لماذا ؟

ورأى « بسّام » صديقَه الصائغ وهو يراقبُ المَشْهَدَ عن بُعدٍ ، فناداه :

ـــ أيُّها الأخُ ! قُلْ للجنود إنّي لستُ سارقاً ، وإنَّ الجواهرَ لي .

فاعترَضه قائدُ الجنود بشدَّةٍ قائلاً :

ـــ يا لك من سارقٍ كذّاب ! ألمْ تعرِفْ أنَّ الصَّائغَ هو الذي أرْشَدَنا إليك ؟ جئتَ إليه تَبيعُه الجواهرَ المسروقةَ ، وحاولتَ أن تَغُرَّه بالمال . ولكنَّه رجلٌ أمينٌ مُخلِصٌ لملكِه. لذلك ذهبَ رأساً إلى

القصر وأخبرَ المَلِكَ المعظَّمَ بالأمر .

فهِمَ « بسّام » كلَّ شيءٍ ! وفي تلك اللَّحظةِ تذكَّرَ نَصيحةَ الحيواناتِ الثَّلاثةِ له ، ورَنَّ في أُذُنيه قولُها : « لا تُساعِدْ هذا الرجلَ ! فهو ناكِرٌ للجميل ، أنانيٌّ شِرِّيرٌ ! دَعْه في مكانه وسِرْ في طريقك ! هذه هي نَصيحَتُنا المُخلِصةُ لك ! »

*

سارَ الجنودُ « ببسّام » إلى القصر ، فأمرَ الملِكُ بأن يُعذَّبَ أوّلاً ، ثم يُطافَ به في المدينة قبلَ أن يُعدَمَ ، ليكونَ عِبْرَةً لغيره من السارقين . بكى « بسّام » ، ودافَعَ عن نفسه . ولكنْ مَن يُصدِّقُ قولَه ؟ مَن يُصدِّقُ أنَّ النَّمرَ هو الذي جاءه بهذه الجواهرِ ؟

ولمّا أدخلوه السِّجنَ في المساء كان الدمُ يَسيلُ

من جسمِه ، فارتمى على الأَرض فاقدَ الوَعْيِ .

وسمعت صديقتُه الحيَّةُ بما جرى له ، فدخلتْ عليه في سِجنه مَسحَتْ جروحَه ، ودهنَتْها بسائلٍ حَمَلَتْه ، فشُفِيتْ للحال . ثم قالت « لبسّام » تُطَمْئِنُه :

ـ لا تَخَفْ أيُّها الصَّديقُ ! سأُخلِّصُكَ من الموت !

ـ كيف تخلِّصينَني أيَّتُها الرَّفيقةُ المخلِصةُ ، وقد أمرَ الملِكُ بإعدامِي صباحَ غدٍ ؟

ـ سأتدبَّرُ الأمرَ . إشرَبْ هذا السائلَ ، فهو يَسُدُّ جوعَك ، ويُروي عطشَك ، ويَشفي جِراحَك . واحتفِظْ بقليلٍ منه لوقتِ الحاجةِ ، فإنَّ له مَفعُولاً سِحرِيّاً .

ثم زَحفَتْ خارجةً من السجن .

ودخلتِ الحيَّةُ على ابنِ الملكِ ، وكان نائماً في

فِراشه ، فلدَغته في رِجله . صاحَ الولدُ من الألم ، فأسرعَ إليه الخَدَمُ فوجدوه يتلوّى في فِراشه من شدَّةِ الألم والحُمّى . ثم حضَرَ الملكُ والملكة مُهرْوِلَين ، فكادا يموتان خَوفاً على ابنهما.

لم ينفعْ مع الأميرِ الملدوغِ أيُّ دواء . وحارَ طبيبُ المملكة في أمره . وأخيراً جمع الملكُ العلماءَ والمنجِّمين وأمرَهم ببَذْلِ عِلْمِهم وخِبْرَتِهم لإنقاذِ وَلده . ولكنَّ جُهودَهم المُخْلِصةَ لم تَنْجَحْ ، فلم يتمكّنوا من الوصولِ إلى العلاجِ الشّافي .

والتفتَ الأميرُ المريض إلى الحاضرين ، وخاطبهم قائلاً :

ـ لا تُتعبوا أنفسَكم ، فأنا لن أشفى ما دامَ أحدُ الأَبْرياءِ في السجن ظُلماً .

صاحَ الملك متعجّباً :

ـ ماذا تقولُ يا بُنيَّ ؟ أَفْصِحْ !

ـ يا أَبي ! أمسِ دخلَ السِّجنَ رجلٌ بريء . هذا الرجلُ وحدَه قادرٌ على شِفائي.

وأمر الملكُ بإخراج السُّجَناءِ وإحضارِهم إلى القَصر . ولمّا دخلَ الجنودُ سِجن « بسّام » وجدُوه صَحيحاً ، معافىً ، فكانت دَهشتُهم عظيمةً ! أين جُروحُه ؟ أين الدماءُ التي كانت تَسيل منه بالأمس ؟ لا شَكَّ أنّه قد شُفي بأُعجوبة !

أَخذَ الجنودُ « بسّام » إلى القصر . وما إنْ أُدخِلَ على الملك في غرفة ابنِه المريضِ حتى صاح الصبيُّ مرحِّباً « ببسّام » :

ـ أهلاً بك يا صديقي ! إسْقِني من ماءِ الشِّفاء الذي معك !

تعجّب « بسّام » باديءَ الأمرِ من كلام الأميرِ الصغيرِ . ثم تذكّرَ الشّرابَ الذي أعطَتْه إيّاه الحيّةُ ، وتذكّرَ قولَها له : « إحتفِظْ بقليلٍ منه لوقت الحاجة » .

ولم يتردَّدْ « بسّام » ، بل أخرجَ من صدره قِنّينةً صغيرة ، وصَبَّ قليلاً من سائلِها في فم الأميرِ . وللحالِ زالَ الورَمُ من موضعِ اللّدْغة ، وسَقَطتِ الحُمّى ، وقامَ الصبيُّ يقفزُ فرِحاً سعيداً !

رَكَضَ الملكُ إلى « بسّام » ، وضمّه إلى صدره قائلاً :

ـــ لقد أنقذتَ حياةَ ولدي ! فشكراً لك ! ولكنْ ، بالله عليكَ ، قُلْ لي : كيف أكافئك على معروفك ؟

أجاب « بسّام » :

ـــ دَعْني أيُّها الملكُ أقصُّ عليك حكايتي ، وأُظهرُ

بَراءتي . هذه هي المكافأةُ الوحيدةُ التي أُريدُها .

وأخذَ « بسّام » يُخبرُ الملكَ والحاضِرينَ بما جرى له مع الصّائغِ والحيواناتِ الثّلاثِ ، وكيف قدَّمَ له النَّمرُ الجواهرَ هديَّةً . وما إن أتى « بسّام » على ذِكْرِ النَّمرِ حتى سَمعَ الجميعُ زَمجرةً هائلةً ، فالتَفتُوا ، فإذا بنمرٍ كبيرٍ يدخلُ الغرفةَ . قال النمرُ مُخاطباً « بسّام » :

ـــ عفوكَ أيُّها الصَّديقُ الكريم ! لقد علِمتُ بما جرى لك بسَبب هديّتي ، فاغْفِرْ لي إساءَتي .

ثمّ التفتَ إلى الملك وقال :

ـــ أنا الذي سَرقَ حُليَّ الأميرة . أردتُ مُكافأةَ صديقي الذي خلَّصَني من الموتِ ، فلم أَجدْ أجملَ من جَواهرِ الأميرةِ هديّةً له ، فقدَّمتُها إليه من غير أن يَعرفَ مَصْدَرَها .

وعادَ يُخاطِبُ « بسام » :

ــ ولمّا أخبرَتْني صديقتي الحيَّةُ بما جرى لك أسرعتُ إليك لمُساعدتك.

وحينَ نطَق النَّمِرُ باسم الحيَّةِ دَخلتْ هــذه غرفَةَ الأميرِ فَجْأَةً ، وقالت « لبسّام » :

ــ عَبْدَتُك بين يديك أيُّها الصَّديقُ ! أُطْلب ما تشاء ، فأنا في خدمتِك .

عادت الطُّمأنِينَةُ إلى قلب « بسّام » ، وسالت الدُّموعُ من عينيــه فرحاً وتأثُّراً ! لا ! لن يَنسى إخلاصَ هذه الحيوانات مَدى الحياةِ !

وعرَفَ الملِكُ بقصَّة الحيَّةِ ، وعرفَ أنَّهــا هي التي أوحتْ إلى ابنهِ ، بعد ما لدَغتْه ، أن يقولَ ما يقولُ ، ليَحضَرَ « بسّام » ويَشفيه ، ولكي تَظْهرَ له براءةُ « بسّام » وشَهامتُه .

في تلك السَّاعةِ دخلتْ ابنةُ الملكِ الغرفةَ تسألُ عن صِحَّة أخيها . فوقعت عيناها عليه يلهو ويَلعب ، فلم تصدِّق أنّه قد شُفِي بهذه السُّرعةِ ! وأخبرَتْها أُمُّها بتفَاصِيلِ الحادثةِ ، وبالدَّورِ الذي لعِبَه « بسّام » ، فالتفتت الأمــيرةُ إلى « بسّام » تَشكُره وتَعتذِرُ إليــه :

ــ أيُّها الرَّجلُ الكريم ! شُكْراً لك ومَعْذِرَةً منك ! شكراً لك على شِفائك أخي ، ومَعذِرةً منك لأنّ جَواهري هي التي أَوقَعتْك في الأذى والعذاب. خُذْها ، فأَنت أَحقُّ بها منّي !

أجابها « بسّام » وهو يكادُ يَطيرُ فرَحاً بكلامها الجميل وعاطِفتِها الصَّادِقة :

ــ كَلاّ أيَّتها الأميرةُ ! هذه الجواهرُ لا تليقُ إلاّ بك ! تَكفيني منك هذه العاطفةُ النَّبيلةُ !

وتدخَّلت الحيَّةُ فجأةً ، فخاطبت الملكَ بقولها :

ــ أيُّها الملكُ السَّعيد ! تريدُ مكافأةَ هذا الشابِّ ؟ زَوِّجْه ابنتَك ، فهو نبيلٌ ، كريمُ الأخلاق !

*

... وتزوَّج « بسّام » بالأميرة ، وقامَ يَستعدُّ للعَودةِ إلى بلاده مع عروسه .

وأمّا الصائغُ الخائنُ فقد أمرَ الملكُ بسَجنه جزاءَ كذِبه وقِلَّةِ وفائه . وتدخَّلَ « بسّام » لمّا سمعَ بالحُكم ، فرَجا الملكَ أن يَعفوَ عنه ، ففَعَلَ . وهكذا خلَّصَ « بسّام » الصَّائغَ للمرَّة الثانيةِ .

ولمّا خرج « بسّام » وعروسُه من المدينةِ كان النَّمِرُ يَمشي عن يمينهما ، والحيَّةُ تَزحفُ عن يَسارهما . وفي مَدْخَلِ الغابة سمعَ الجميعُ ضحِكاً يُشبهُ

ضَحِكَ الأطفالِ ، ترافقُه أصواتٌ عاليةٌ فرِحة . وإذا بالقِرْدِ يُقبِلُ نحوَهم ، فيقفِزُ أمام الأميرة بطريقة بَهْلوانيَّةٍ مُضحكةٍ . ثم قدَّم إلى الزوجين السعيدين الفاكهةَ اللَّذيذةَ ، فأكلا منها حتى شبِعا !

وبعد استراحةٍ قصيرةٍ سار مَوْكِبُ العروسَين ، يرافقه خيرُ الأصحابِ وخيرُ الحُرَّاسِ : النَّمرُ النبيل ، والحيَّةُ الحكيمة ، والقِردُ الطَّيِّب .

الأسئلة

١ – كوب من العصير

١ – ماذا تعرف عن بلاد « فارس » : موقعها – اسمها اليوم .

٢ – ما كانت غاية الفتاة من وضع الطيّب على وجه كوب العصير ؟ انقل من الكتاب العبارات التي تشرح فيها غايتها .

٣ – أعطِ مرادفاً لكلّ من الكلمات التالية: جواد - عدا - كوب - مزهوّ .

٤ – اشرح الكلمات التالية : لاح – رشف – تمهّل – زهيد – أعفي .

٥ – أذكر الأسباب التي جعلت « كسرى » ملك الفرس يختار الفتاة الفقيرة زوجاً له .

٢ – الرغيفات

١ – غار الملك الشرّير من وزيره الصالح ، فانتقم منه أوّلاً ، ومن الناس الذين أحبّوه ثانياً . بيّن طريقة انتقامه .

٢ – ما هو العهد الذي قطعه الملك على نفسه امام زوجه والغريبين بعد أن ندم على أعماله الشرّيرة ؟ أنقل كلام الملك حرفيّاً على دفترك .

٣ – قال الفقير للفتاة عندما تصدّقت عليه برغيفين من الخبز : « أطلب من الله أن يردّ عليك هذين الرغيفين خيراً وبركة » ! هل استجاب الله لطلب الفقير ؟ فسّر .

٤ – أذكر ضدّاً لكل من الالفاظ التالية : عادل - الخير - الجوع .

٥ – اذكر مرادفاً لكلّ من التعابير الانشائية التالية : طاعن في السنّ - أنين موجع - ارتعد خوفاً .

٣ – الكرسيّ المعلّق

١ – كان « المأمون » من اشهر الخلفاء العباسيّين . اذكر بالتفصيل ما تعرف عنه .

٢ – كيف توصّل « اسحاق الموصلي » الى دخول قصر السّيدة المجهولة ؟

٣ – لماذا تزوّج « المأمون » « ببوران » ابنة وزيره « الحسن بن سهل » ؟ ما هي الصفات التي أحبّها فيها ؟ اشرح .

٤ – اذكر مرادف الكلمات التالية : امير المؤمنين – البيزنطيّون – مطرب – تاه .

٥ – اذكر مؤنّث الكلمات التالية : رجل عجوز – غلمان – صبيّة .

٦ – راجع في المعجم « رائد الطلاّب » معنى المفردات التالية : تلا – سرد – نديم – العقاب – زيّ .

٤ – غدر ووفاء

١ – ما هي الأصوات الغريبة التي سمعها « بسّام »، وماذا كان مصدرها ؟

٢ – حذّرت الحيوانات الثلاثة « بسّام » من انقاذ الرجل . هل كانت مُحقّة في تحذيرها ؟ فسّر .

٣ – كيف شفت الحيّة جراح « بسّام » أوّلاً ، ثم خلّصته من الموت ثانياً ؟

٤ – ماذا تسمّي صوت كلٍّ من الاشياء التالية : أوراق الشجر - المياه - الرياح - الرعد .

٥ – ضع التعبيرين التاليين في جملتين مفيدتين : أنكر الجميل - ردّ الجميل .

محتوى الكتاب

وكان الفراغ من طبع هذا الكتاب في
يوم ٢٥ ايلول (سبتمبر) ١٩٩١
على مطابع دار غنــدور ش.م.م.
بـيروت

٢١٣/٩ - ١٩٩١

منشوراتنا القصصية

١ يا بياع السمسمية
٢ أبو الخيمة الزرقاء
٣ حدثني يا ابي
٤ اسرى الغابة
٥ ملح ودموع
٦ يوم عاد ابي
٧ صندوق أم محفوظ
٨ جدتي
٩ عنب تشرين
١٠ عازفة الكمان
١١ وكان مازن ينادي
١٢ كانت هناك امرأة
١٣ يوم غضبت صور
١٤ بابا مبروك
١٥ الأنامل السحرية
١٦ المغني الكبير
١٧ جلجامش
١٨ نور النهار
١٩ النسر الكريم
٢٠ رنين الخناجر
٢١ النجمتان
٢٢ اين العروس
٢٣ جزيرة الوهم
٢٤ الغرفة السرية
٢٥ النار الخفية
٢٦ الحاج بجبج
٢٧ جوهرة الجواهر
٢٨ دهليز الغرائب
٢٩ التجاريب
٣٠ الصحائف السود
٣١ سلسلة من حكايات بيدبا
٣٢ كوب من العصير
٣٣ المنجّم « عصفور »
٣٤ مغامرات أوليس
٣٥ وطلع الصباح
٣٦ اسطورة البحر
٣٧ الشريط المخملي
٣٨ سمايا
٣٩ الشكبون
٤٠ الحب والربيع
٤١ غرباء
٤٢ خاتم .. لبّيك!
٤٣ وزّة الريش الذّهب
٤٤ من أجل عينيها
٤٥ نهرنا الصغير